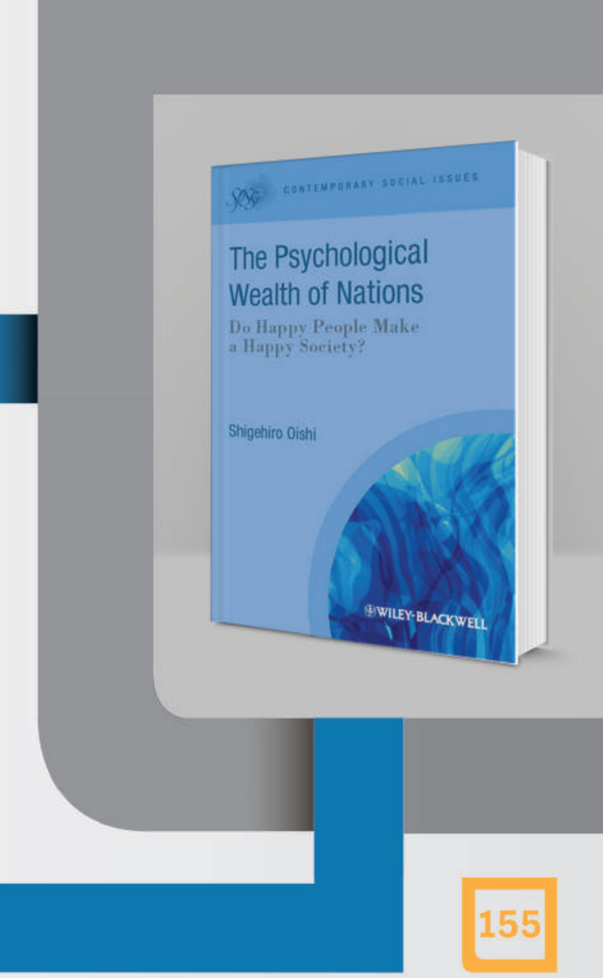


الثروة المعنوية للأمم

كيف يصنع السعداء مجتمعاً سعيداً؟





تأليف
شيجيرو أويشي

المبادرات والمشاريع













في ثوانٍ...

في العدد الثالث من سلسلة «كتاب في دقائق» يُشرفُنا تلخيص كتاب علمي تأليف الدكتورة «جويتني مايترا» برعاية سمو الشيخ منصور بن زايد آل نهيان، نائب رئيس مجلس الوزراء ووزير شؤون الرئاسة. الكتاب بعنوان: «زايد: من التحدّي إلى الاتحاد»، وقد صدر عن «الأرشيف الوطني»، وبإهداء مَهَرَه الشيخ منصور بقلمه حيث قال: «أهدي هذا الكتاب إلى روح والدي الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان طيب الله ثراه، تقديراً وإعجاباً بقيادته المتميزة وإسهاماته المجيدة لبلده وشعبه».ففضلاً عن الإلهام الذي تُسَطِّره سيرةُ الراحل العظيم، يَلمسُ القارئ أن الشيخ زايد كان سابقاً لعصره، حيث حَظِيَ بتقدير استثنائي وتفويض شعبي بقيادة الاتحاد لثلاثة وثلاثين عاماً حافلةً بالإنجازات. وما زالت الإمارات تُواصل مسيرتَها بوحْيٍ من روح العصر وهي تُسابقُ الزمنَ وتسير من نجاح إلى نجاح.

تتلخص رؤية الكتاب في أنه تقع على الجيل الحالي من المثقَّفين الإماراتيين مسؤوليةُ فهم تاريخ بلادهم، بالاعتماد على مصادر متنوعة لتكوين صورة متكاملة عن التحديات التي قادت إلى الاتحاد. وتأتي الخُلاصة لتوجزَ دراسةً فريدةً اعتمدت على مصدرين أوليين وأساسيين من المصادر الأرشيفية هما: المكتبة البريطانية في لندن والأرشيف الوطني في أبوظبي، حيث عَرَضت تسلسلاً زمنياً لثلاث محطات رئيسة في حياة المغفور له الشيخ زايد السياسية، منذ أن كان ممثلاً لحاكم أبوظبي في العين، ثم حاكماً لإمارة أبوظبي، ثمَّ رئيساً للدولة.

وفي كتاب: «الثروة المعنوية للأمم: كيف يصنع السُّعداء مجتمعاً سعيداً» يكاد مؤلفه «شيجيرو أويشي» يُلخِّص ما أبدعه المغفور له الشيخ زايد في رحلة بنائه لدولة الإمارات السعيدة والقوية. فبعد أكثر من قرنين على صدور كتاب «ثروة الأمم» لآدم سميث، بدأ علماءُ النفس والاجتماع والاقتصاد يدرسون الثروات المعنوية والنفسية والقوة الناعمة للأمم. وفي هذا يشير المفكِّر الشهير «فرانسيس فوكوياما» إلى الدور الذي يلعبه رأسُ المال الاجتماعي في صنع سعادة الأفراد وتلاحم المجتمع ككل. حيث تلعب الثقافة والطاقة الإيجابية وروح التعاون والتآزر دوراً حاسماً في استيعاب وتدوير واستثمار الثروة المعنوية، ما يُثري عقلَ الإنسان ويقوده إلى حياةٍ أفضلَ.

وفي ملخص كتاب «الشبكة والفراشة: طفرات التفكير بين الفن والتطبيق» لكلٍّ من «أوليفيا فوكس كابين» و «يودا بولاك»، نكتشفُ أنَّ طفرات التفكير مثل الفراشات: جميلة ومُلهِمة، ولكن يَصعُب الإمساك بها. حالات الإلهام الخارقة لا تحدثُ بالتركيز والاجتهاد فقط، بل تتشكَّل بنمط يصعب تفسيره أو التنبؤ به. نحن في العادة نَتصوَّر هذه اللحظات مجرَّدمفاجآت فكرية خالصة لا سبيل إلى جذبها، وكأنها تحدث للمحظوظين والاستثنائيين فقط. والحقيقة أنَّ بإمكاننا اختبار لحظات الفتح والتجلِّي وتحويل المُلهِمات إلى مُمكِّنات ومُمارسات.

جمال بن حويرب

المدير التنفيذي لمؤسسة محمد بن راشد آل مكتوم للمعرفة

ما الثروة المعنوية؟

بعد مرور أكثر من 200 عام على نشر «آدم سميث» كتابه الشهير «ثروة الأمم»، بدأ المفكّرون والباحثون في علوم الاقتصاد والاجتماع وعلم النفس الاجتماعي يدرّسون الثروات المعنوية والنفسية والقوة الناعمة الخفية للشعوب والأمم، وهم يُنقّبون عن مصادر ومنابع السعادة، وعلى مدى العقود الأربعة الماضية حاول علماءُ النفس والاجتماع وعلماءُ السياسة والخبراء الاستراتيجيون؛ الإجابة عن الكثير من التساؤلات التي طالما راودت بني البشر لآلاف السنين، ويبدو أنَّ الوقت قد حان لجني ثمار جهود هؤلاء العلماء ومعرفة ما وصلوا إليه، لندرك ونستلهم ما يعنيه مفهومُ «الثروة المعنوية للأمم».

من السهل إدراك مفهوم الثروة المادية إذا ما قورن بمفهوم الثروة المعنوية، فالثروة المادية هي الأموال والممتلكات والأصول والموارد المادية المتاحة التي يملكها الإنسان أو المؤسسة أو المجتمع، ويستطيع التصرُّف فيها بالبيع أو الشراء أو الاستثمار أو الاستهلاك، فما الثروة المعنوية بالمقابل؟

أشار باحثون كثيرون، ومنهم: «جيمس كولمان»، و«روبرت بوتمان»، و«فرانسيس فوكوياما» إلى أهمية وحيوية الدور الذي يلعبه رأسُ المال الاجتماعي والمتمثّل في الشبكات والعلاقات الإنسانية وقدرة أعضاء المجتمع الواحد على العمل معاً؛ وتأثير ذلك في صنع سعادة الأفراد، وكذلك سعادة وتلاحم المجتمع، ومن هنا يمكن اكتشاف أوجه التشابه بين رأس المال المادي ورأس المال الاجتماعي، فكما يُعدُّ الدخل والادخار والأصول مصادرَ مالية، يمكننا أن نعدَّ الصداقات، وسلوكيات التسامح والتعاون والشبكات الاجتماعية المترابطة؛ موارد ومكتسبات معنوية يستخدمها الناس لتخفيف وطأة الأزمات وحل المشكلات في الأوقات العصيبة، وكما هي الحال في الاستثمارات المالية، يمكن للأفراد والمجتمعات المحلية الصغيرة، والإقليمية الكبيرة استثمار الوقت والجهد والمبادرات في تكوين الصداقات، وبناء الأسر المتناغمة، والمجتمعات المستقرة، والعلاقات الزوجية الناجحة.



فقد توصّل عالم الاجتماع «مارك جرانوفيتر» إلى أنَّ لدى أصحاب شبكات العلاقات الواسعة فرصاً أفضل للحصول على وظائف متميّزة وذات أجور مُجزية، مقارنةً بذوي العلاقات الضيّقة، ولهذا السبب يُسهم ما أطلق عليه «روبرت بوتمان» اسم رأس المال الاجتماعي في تحويل الأصول المعنوية إلى ثروات مادية، ثمَّ رفع مستوى السعادة في المجتمعات المتناغمة والمتلاحمة، فليس هناك أدنى شك في أنَّ رأس المال الاجتماعي يلعب دوراً مهماً في استيعاب وتدوير واستثمار الثروة المعنوية، ومع أنَّ «بوتمان» لم يركّز كثيراً على الحالة النفسية في حد ذاتها، إلا أنَّه أشار إلى ما يُثري عقلَ الإنسان ويُغذّي روحه من علاقات اجتماعية، إضافة إلى مؤثّرات البيئة الخارجية.

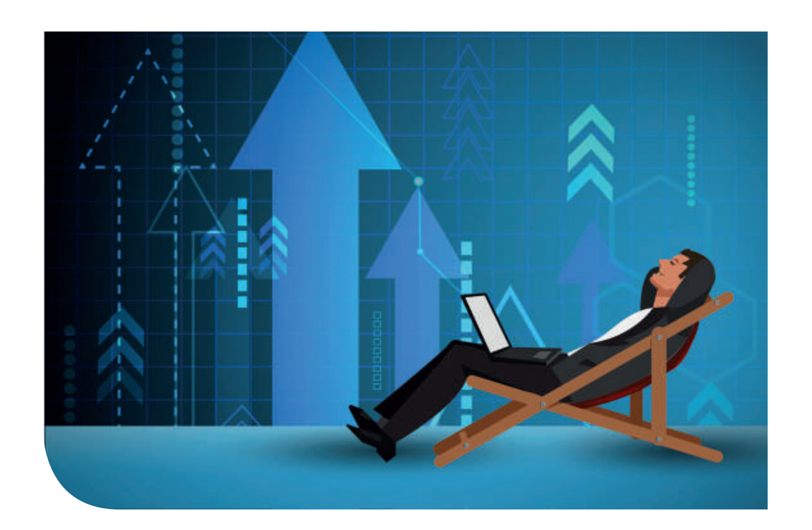
فما الذي يثري عقل الإنسان ويسهم في إيجابيته؟

أولاً: الإيمان بهدف



هناك من يرى أنَّ الإيمان بهدف أو فكرة أو مبدأ أو غاية إنسانية سامية، يميل في حياته عموماً إلى الشعور بالأمان والسلام والطمأنينة الداخلية، التي تجعله يتصوَّر ويعيش من أجل مبادئ تعدُّ في مجملها أعلى وأسمى وأكثر تكاملاً وتوافقاً مع قوانين العالم من الإنسان الفرد المجرَّد وحده، إذ يعدُّ شعور الإنسان بأنَّ لحياته معنى أو هدفاً مؤشّراً قوياً على الثراء المعنوي، علاوة على اقتراب العلماء من اختبار وتعريف وقياس معنى الحياة والهدف، وفي دراسة واسعة أجرتها جمعية علم النفس الإيجابي لتحديد مصادر السعادة، تبيّن أنَّ «الإيمان بغاية كبرى يشكّل أوَّل منابع السعادة الأصيلة والأساسية.

ثانياً: المرونة



المؤشّر الثاني للثروة المعنوية والنفسية هو المرونة التي يتمتَّع بها الإنسان فتوفّر له طريقة إيجابية للتكيُّف مع التجارب الصعبة وما بعدها، إلا أنَّ المرونة النفسية لا تظهر إلا حين يتعرَّض الناس للمواقف الصعبة أو يواجهون الأزمات والتحدّيات، حيث لا يوجد مجتمع ينجو أو يخلو من الأزمات الطارئة والكوارث الطبيعية، وتتجلّى الثروة المعنوية في مرونة أفراد المجتمع وقدرتهم على التلاحم والصمود في وجه الملمّات كما حدث في اليابان عام 2011 بعد زلزال «توهوكو» الذي أودى بحياة 16,000 ياباني وألحق أضراراً بالغة في مفاعل «فوكوشيما» النووي.

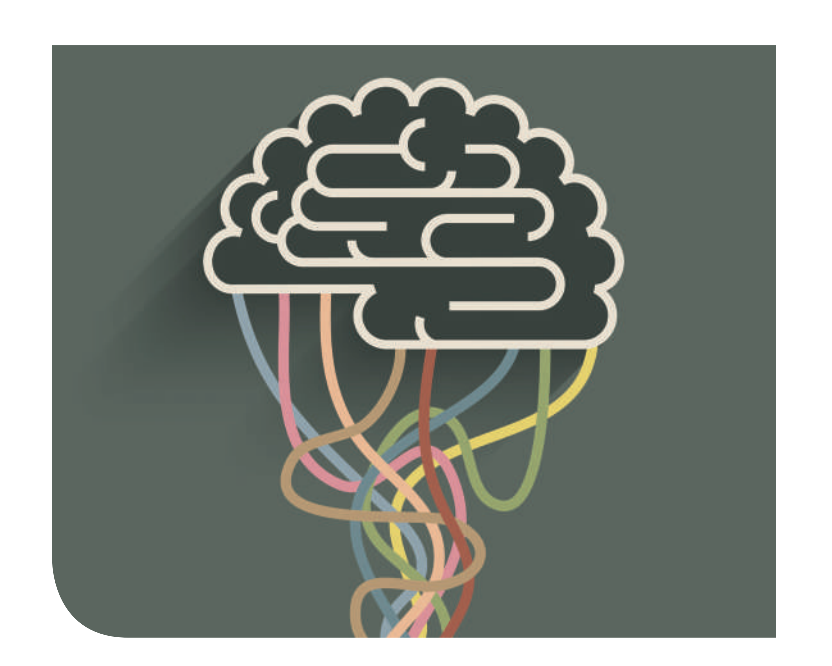
ثالثاً: الموارد العقلية



هناك من يعزو الثراء المعنوي إلى الموارد العقلية والذكاء الذي يوفّر للأفراد ما يحتاجون إليه من ابتكارات وطرق وأساليب حديثة لحل المشكلات؛ بدءاً بالقراءة والكتابة وحل المشكلات اليومية، ووصولاً إلى العلوم والطب والهندسة والتخطيط المستقبلي، ومن هنا يعدُّ ذكاء أبناء أي مجتمع من المفاهيم الجاذبة للعلماء المهتمّين بالثروة المعنوية.

رابعاً: الذكاء الاجتماعي

توقَّف العلماء تقريباً عن إجراء الأبحاث في مجال الذكاء الاجتماعي منذ أن أجرى «ثورندايك» و«شتاين» أبحاثهما عام 1937، غير أنَّ كلاً من «كانتور» و«كيلستروم» أعادا الذكاء الاجتماعي إلى دائرة الاهتمام في عام 1989، وعَرَّفا الذكاء الاجتماعي بأنَّه قدرة الناس على التعامل مع مشكلاتهم اليومية العادية ومشكلاتهم المتشابكة والمركّبة، وقد اتفق أخيراً بشكل واضح على أنَّ الذكاء الاجتماعي أكثر تنوُّعاً وتعقيداً من أن يقاس بمعايير موضوعية، ما جعلهم يحثُّون علماءَ النفس على بحث العناصر المتنوّعة للذكاء الاجتماعي مثل القدرة على وضع الأهداف، والتنفيذ، وقوَّة الإرادة، ومعرفة الذات.

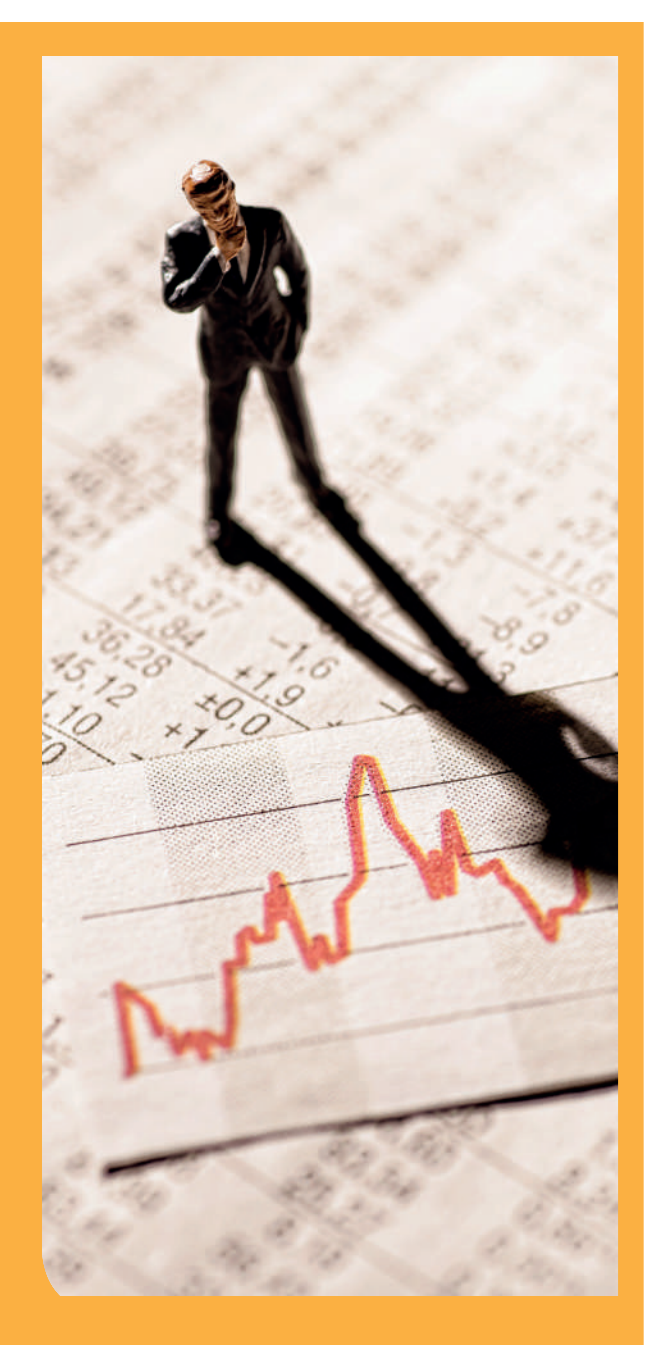


نظرة إلى الإجمالي المحلي

رغم الإجماع على أهمّية المؤشّرات المجتمعية (مثل إجمالي الناتج المحلي للفرد، ومعدَّلات الادخار، ومعدَّل البطالة) في قياس الثراء المادي، فإنَّ هناك اتفاقاً أقلّ على تحديد مؤشّرات الثروة المعنوية والسعادة المجتمعية، وتبرز في هذا السياق أسئلة متعدّدة تحتاج إلى إجابات، ومنها: هل يمكننا مثلاً، اعتبار معدَّل الطلاق مؤشّراً؟ وماذا عن طول العمر، وانخفاض معدَّلات البطالة، وارتفاع مستوى التعليم، والوعي المعرفي؟

حتى وإن كان هناك اتفاق على فحوى ومحتوى المؤشّرات، تبقى أمامنا مسألة الترجيح: فهل يُمكن وضع مؤشّر اقتصادي مثل مستوى دخل الفرد على كفَّة الميزان مقابل مؤشّرات مثل معدَّلات معرفة القراءة والكتابة أو تلوُّث الهواء؟ للإجابة عن مثل هذه الأسئلة، ابتكرت هيئة الأمم المتحدة مؤشّرَ التنمية البشرية عام 1990 ليجيب عن مثل هذه التساؤلات، إذ لم يكن هناك معيار متفق عليه للسعادة المجتمعية إلى جانب المؤشّرات الاقتصادية قبل ابتكار هذا المؤشّر، وقد اقتصر المؤشّر في البداية على قياس دلائل بسيطة مثل متوسّط الدخل، وطول العمر، والتعلُّم.

وبعد ابتكار مؤشّر التنمية البشرية المشار إليه، اقترحت مقاييس للسعادة المجتمعية، في عام 1995 ابتكر «داينر» مؤشّر جودة الحياة القائم على تحديد بعض القيم مثل: القوَّة الشرائية، ومعدَّل الجريمة، والحصول على احتياجات الجسم الأساسية، وحقوق الإنسان، والعناية بالبيئة والغابات، ثمَّ طوَّر «داينر» صوراً مُحدّثة لهذا المؤشّر؛ فمثلاً: يعدُّ مؤشّر احترام حقوق الإنسان بمثابة المؤشّر الرئيس للالتزام بالمساواة، بينما تعدُّ العدالة في توزيع الدخل مقياساً جديداً للالتزام بالمساواة، كما يعدُّ معدَّل معرفة القراءة والكتابة هو المؤشّر الأساسي للاستقلال المعرفي أو استقلالية التفكير، ويعدُّ الالتحاق بالجامعة هو المؤشّر لتكافؤ الفرص.



وقد اقترح مركز الأبحاث المتخصّص بالسعادة المجتمعية في مملكة «بوتان» مؤشّراً إجمالياً للسعادة يتكوّن من: مستوى المعيشة، والصحَّة، والتعليم، وتنوُّع الأنظمة البيئية والتكيُّف، والانتعاش والتنوُّع الثقافي، واستثمار الوقت وتنظيمه، والحوكمة، ورفاهية المجتمع، والرضى النفسي، غير أنَّ المركز لم يوضّح كيفية قياس رفاهية وازدهار المجتمع، والنهضة الثقافية، وحسن استثمار الوقت، ورغم إيجابيات وقوة مؤشّرات التنمية البشرية والسعادة، تبقى أمامنا مشكلات عدَّة وأسئلة تحتاج إلى إجابات:

أولاً: يقوم بعض الخبراء بتحديد المؤشّرات التي ستدرج في المؤشّر الإجمالي للسعادة المجتمعية، من دون أن يتركوا مساحة لوجهات النظر الأخرى والاختلاف، مثلاً: هل يمكن إدراج معدَّلات البطالة؟

ثانياً: ليس هناك ما يوضّح الصيغة التي يتم من خلالها حساب المؤشّر العام.

ثالثاً: لا تخلو المؤشّرات الاجتماعية من أخطاء في القياس؛ فمثلاً: في بعض الدول تكون الإحصائيات الخاصة بالتعليم أكثر دقّة من غيرها، وعليه لا يمكن وضع ثقة كبيرة في المؤشّرات الاجتماعية بشكل مطلق.

رابعاً: المؤشّرات الاجتماعية قد لا تعكس متغيّرات أخرى كثيرة مثل: معدَّلات التخرُّج، ونسب الحاصلين على شهادة الثانوية، والضغوط التي تواجه الناس في حياتهم اليومية، فمثلاً: قد يفترض المحلّلون المتخصّصون في المؤشّرات الاجتماعية أنَّ ارتفاع نسبة الحاصلين على شهادة المدرسة الثانوية يعني زيادة السعادة المجتمعية، ولكن هل يعيش خرّيجو المدارس الثانوية بسعادة في بلاد يحمل كل أو نصف سكانها دبلوم الدراسة الثانوية بنجاح؟ الحقيقة أنَّ فرص النمو الاقتصادي تزيد في البلاد ذات مستويات التعليم المرتفع أكثر منها في البلاد ذات التعليم المنخفض، ومع ذلك قد تكون المنافسة بين الأقران أكثر شراسة في البلاد التي يرتفع فيها عدد السكان ويزيد فيها التنافس على فرص العمل كما في الهند مثلاً، بينما يحظى المتعلّمون بمستويات أعلى من جودة الحياة الشخصية في البلاد التي تنخفض فيها مستويات التعليم، ولكنَّهم يعانون من تدنّي مستوى الخدمات وربَّما من ارتفاع معدَّلات الجريمة، ومن هنا فإنَّ العلاقة بين المؤشّرات الاجتماعية وجودة حياة الناس اليومية ليست واضحة تماماً، لأنَّ بعض مقاييس المؤشّرات المطبَّقة حتى الآن ليست دقيقة.



قياس الثروة المعنوية

كيف نقيس السعادة؟

لم تحقّق الدراسات التي أُجريت على السعادة طبقاً لتقارير الاستقصاء أو الاستفتاء الشخصي أي تقدُّم منذ بدايتها في ثلاثينيات القرن الماضي وحتى منتصف القرن، وذلك بسبب هيمنة النظرية السلوكية، فطبقاً للمدرسة السلوكية، لا بد من قياس المعطيات بمعايير موضوعية، ما جعل الدراسات القائمة على الإبلاغ والاستقصاء الذاتي موضع شك. يُضاف إلى ما سبق قلق خبراء وعلماء النفس حيال صحة وفاعلية المقاييس النفسية، علاوة على وضع معايير غير واضحة لعملية التحقُّق.

بالمقابل حقَّق علماء النفس تقدُّماً كبيراً في قياس مواصفات نفسية أخرى، رغم أنَّها أكثر صعوبة، فقد نجح «هنري موراي» في قياس الدوافع الخفية والحاجة إلى الانتماء، لكنَّه لم يهتم بمؤشّرات ومقاييس السعادة لاعتقاده بأنَّ نظرية «أرسطو» القائلة إنَّ السعادة هي أسمى الأهداف ما زالت صحيحة ولم يتم تفنيدها، بينما لم ينجح عالم آخر في اكتشاف سر السعادة.

لقد كان «موراي» متشائماً للغاية، حيث كانت المقاييس الشائعة في علم النفس آنذاك شديدة الصرامة، وبالإضافة إلى سيطرة السلوكية، لم يكن الباحثون قد قرَّروا ما إذا كان بالإمكان قياس السعادة وغيرها من الظواهر والمشاعر الذاتية، وبعد عقود حين غيَّرت الثورة المعرفية في ستينيات وسبعينيات القرن العشرين الموازين السلوكية، قرَّر علماء النفس أنَّ الحب والسعادة وغيرهما من المشاعر الشخصية موضوعات إنسانية مهمَّة جداً، ولا بد من بحثها.

أمَّا الباحثون العاملون في الميدان الذي لم ترُقْ لهم المناهج الأكاديمية، ولم يعوّلوا كثيراً على المدرسة السلوكية، فقد عملوا ببساطة وطرحوا أسئلة مباشرة، وقد أجري أوَّل استقصاء مباشر لقياس السعادة في عام 1946، وكانت الأسئلة المطروحة بسيطة جداً مثل: (بشكل عام: كيف تسير الأمور هذه الأيام؟ هل تقول إنَّك: 3= سعيد للغاية، 2 = سعيد إلى حد ما، 1= لست سعيداً)، بينما طرح باحثون عالميون آخرون أسئلة عامة مثل: بأخذ جميع الأمور في الاعتبار، إلى أي مدى تشعر بالرضى عن حياتك برمَّتها حالياً؟

الاجابة (1 = غير راض) – إلى(10 = راض)، وحين توصَّل الباحثون إلى مقاييس راسخة لدرجة الرضى، ازدهرت أبحاث السعادة، وبعد تقبُّل الأوساط العلمية للتقارير الذاتية، بدأ عُلماء النفس في استخدام نتائج أبحاث السعادة والرضى عن الحياة التي سبق رفضها، ورغم هذه التطوُّرات، بقي الشك قائماً، فمثلاً: زعم «آنجوس كامبل» أنَّ هناك ثلاث فرضيات يجب أخذها بعين الاعتبار لكي نثق بمقاييس السعادة:

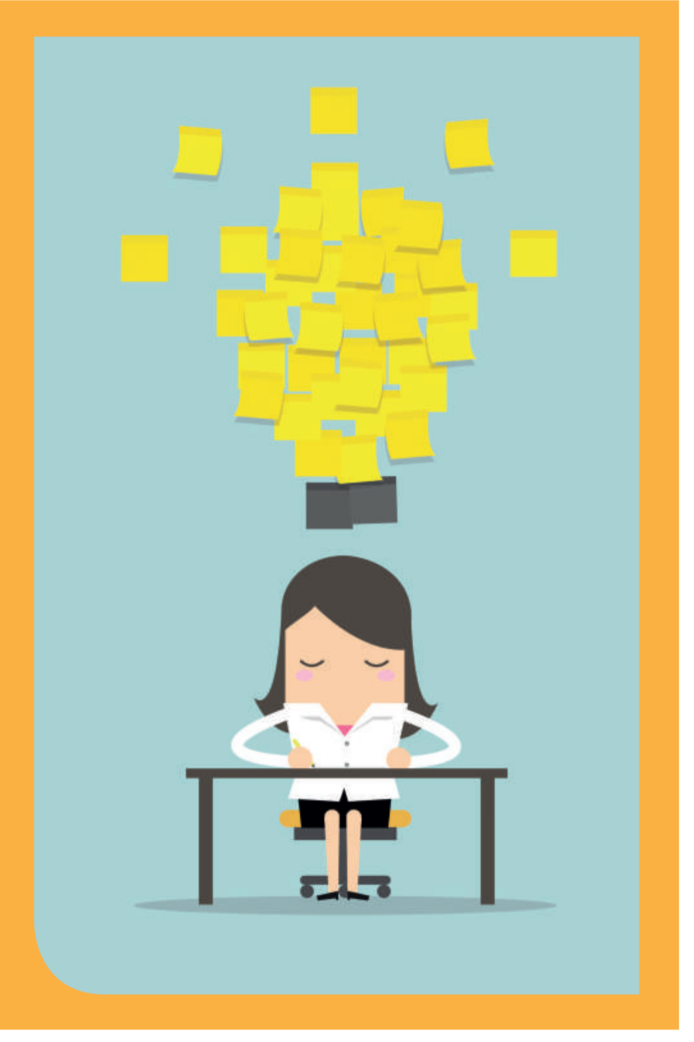
- التأكُّد من أنَّ جميع التجارب التي يمرُّ بها الناس يومياً تضيف إلى شعورهم العام بالرضى (السعادة).
- التأكُّد من أنَّ هذه المشاعر تبقى ثابتة لفترة زمنية طويلة.
- الاطمئنان إلى أنَّ الناس يستطيعون وصف مشاعرهم بصراحة ودقَّة.

الاستقصاءات الذاتية وحل مشكلة التذكُّر

أثمر النقد الموجَّه إلى تقارير الاستقصاء الذاتية عن تطوُّر في منهجيات أخرى، فمثلاً: ابتكر الدكتور «كانمان» وفريقه منهج «إعادة بناء اليوم» حيث يُدوِّن المشاركون يوميَّات تدور حول أوقاتهم السعيدة والكيفية التي يقضون بها أوقاتهم، حيث يسجّلون كل يوم ما فعلوه في اليوم السابق، ولمساعدتهم على التذكُّر، كان الباحثون يطلبون منهم أن يتذكَّروا أنشطتهم الصباحية، وأن يدوِّنوا كل نشاط على حدة، وتقدير الوقت الذي قضوه فيه، وكيف كان شعورهم آنذاك.

وابتكر كل من «ويلر» و«نزليك» منهج تدوين الأحداث، فبدلاً من استكمال تقارير متتابعة في أوقات سبق تحديدها مسبقاً، يطلب الباحثون وفق هذه الطريقة من المشاركين استكمال هذا التقرير كلَّما وقع حدث بعينه، وفي بعض الأحيان يطلب الباحثون من المشاركين وصف التفاعلات الاجتماعية فور حدوثها، ما يتيح لهم فرصة اختبار الإفصاح عن الذات والألفة والمشاعر كما هي عليه في الواقع وليس كما يمكن لهم أن يتذكَّروها.

ولكن رغم الميزّات التي توافرت لمثل هذه الأساليب الاستقصائية، فقد كان معظم المشاركين في هذه الدراسات، وبعض الباحثين القائمين عليها، يتبرَّمون من صعوبة المهمَّات التي كانوا يعتبرونها ثقيلة ومتشابهة ومملَّة.



التقارير غير الذاتية لقياس الرضى

في مرحلة متقدّمة، وفي محاولة لابتكار مقاييس موضوعية، حاول باحثون آخرون تجنُّب طرح الأسئلة على الناس لدراسة المؤشّرات الحيوية وقياس معدَّلات الرضى، فمثلاً: تمَّ استخدام «الكورتيزول» لقياس مستويات السعادة لدى الأفراد، حيث يشير ارتفاع مستوى «الكورتيزول» في فترة بعد الظهر إلى التعرُّض للضغوط وعدم الشعور بالسعادة؛ بينما يميل «الكورتيزول» للارتفاع الشديد لدى الأصحَّاء والسعداء في الصباح الباكر، أي بعد الاستيقاظ من النوم مباشرة، ثمَّ ينخفض فجأة، وهذا يعني أنَّ ثبات مستوى «الكورتيزول» في الدم خلال ساعات النهار مؤشّراً على الاضطراب وعدم الراحة، فقد اكتشف «أبركرومبي» وفريقه أنَّ لدى مريضات سرطان الثدي مستويات «كورتيزول» ثابتة مقارنة بنظيراتهن في فئة العيّنات السليمة، وقد أظهرت المشاركات في مجموعة الاختبار مستوى منخفضاً من «الكورتيزول» الناتج عن التعرُّض للضغوط، وغياب الدعم الاجتماعي، وأحرزن نقاطاً أقلَّ في سرعة التذكُّر واختبارات الذاكرة.

المجتمع المثالي من منظور حديث



عرَّف «أفلاطون» و«أرسطو» المجتمع المثالي من خلال شكل الحكم؛ المَلَكية بالنسبة إلى أفلاطون، والأرستقراطية بالنسبة إلى أرسطو، بينما عرَّفه «هوبز» من خلال مخرجاته، أي التناغم والتلاحم والعلاقات الاجتماعية والنظام الاجتماعي ككل، وقد حاول «جيرمي بنتام» رسم صورة للمجتمع المثالي في كتابه «مبادئ الأخلاق والتشريع»، وكان ذلك عام 1789، متصوّراً وآملاً ببناء مجتمعات مدنية منضبطة تحكمها منظومات وتشريعات قانونية من شأنها حل مشكلات البشر، وتقليل همومهم، وكذلك زيادة سعادتهم.

أمَّا «فريدريك إنجلز» وروّاد المدرسة الشمولية والفكر الاشتراكي فكانوا يرون المجتمع المثالي أقرب ما يكون إلى منظومة متماثلة تسودها المساواة باعتبارها حجر الزاوية والمدخل الوحيد لبناء مجتمع مثالي، وقد علَّلوا ذلك بأنَّ غياب المساواة هو السبب الأهم والأوحد للصراعات بين البشر على مر التاريخ، ولأنَّ عدم المساواة يقود إلى اندلاع الصراعات والحروب و«الدمار الشامل»، فقد أكَّد هؤلاء أنَّ المجتمع المثالي لا يمكن أن يكون طبقياً أو تنافسياً، فألغوا بذلك دور الجدارة والكفاءة والجهد والعمل في بناء المجتمعات الراقية، وقد حاول «جون رولز» معالجة الخلل الذي اعترى فكر الاشتراكيين المثاليين، فأضاف شرطاً جديداً ينصُّ على أنَّ المجتمع المثالي هو الذي يشجّع على تكافؤ الفرص وتوفيرها في تحقيق الثروات وتوزيعها.

أمَّا منظمات العولمة الدولية القوية مثل: صندوق النقد الدولي والبنك الدولي، فإنَّها تروّج ضمنياً للمجتمعات الكبيرة المتطوّرة، إذ تفترض سياساتها أنَّ الثروة المادية هي أساس المجتمع المثالي لأنَّها تضمن تلبية الاحتياجات الأساسية مثل الغذاء والماء والدواء والكساء والمأوى، ولذا تُخصّص الأمم المتحدة وغيرُها من المنظَّمات الدولية جانباً كبيراً من معوناتها بشكل مباشر لتلبية الاحتياجات الأساسية، بينما يُخصّص كل من البنك الدولي وصندوق النقد الدولي مواردَ كثيرةً لمساعدة الدول على تطوير اقتصاداتها، غير أنَّ هذه المعونات تتضمَّن نظرية التحديث التي تقطع بأنَّ التطوُّر الاقتصادي يقود إلى التحديث والتجديد وإلى حياة أفضل، ممَّا يعني ضمنياً أيضاً مستوياتٍ أعلى من الثروة المعنوية للأمم.

مظاهر التناقض

في عام 1974 قام عالم الاقتصاد «ريتشارد إيسترلين» بتجربة العلاقة بين المال والسعادة للمرة الأولى، فقد كتب في بحث بعنوان «هل يؤثّر النمو الاقتصادي على مستقبل البشرية؟ بعض النتائج المثبتة» ما شكَّل صدمةً للأوساط الاقتصادية في ذلك الوقت، إذ قام بجمع معلومات عن السعادة من أربع عشرة دولة من أكثر الدول ثراءً (مثل: الولايات المتحدة وألمانيا الغربية)، والأكثر فقراً (مثل نيجيريا والهند)، وحين قارن متوسّط مستويات السعادة في هذه الدول، فوجئ أنَّ هناك فروقاً بسيطة بين الدول الغنية والفقيرة، فرغم عدم شعور سكان جمهورية «الدومينيكان»

و«الهند» بالسعادة (تراوحت نسبة السعادة فيهما بين 1.6 و3.7 على مقياس من 0 إلى 10 نقاط)، وشعر مواطنو «كوبا» و«الولايات المتحدة» بقدر من السعادة (تراوح بين 6.4 و6.6). بينما جاءت الدول العشر الباقية في مستوى أقل نسبياً (يتراوح بين 4.4 و5.5)، فبينما كانت بعض الدول الفقيرة سعيدة جداً، كانت بعض الدول الغنية متوسّطة السعادة.

وكان ممَّا خلص إليه «إيسترلين» هو أنَّ دور المال والثروة المادية ليس بالأهمية التي كان يتخيَّلها، ويتخيَّلها العامَّة والناس كافة، ولأنَّه توصَّل إلى نفس النموذج والمؤشّرات في دول عدَّة، استنتج «إيسترلين» أنَّ العلاقة بين الدخل والسعادة قوية على المستوى الفردي فقط، وقال: «ربما يكون أكثر الأمور إثارة للدهشة هو أنَّ تقدير السعادة الشخصية لـ10 دول من 14 يقع على بعد نصف نقطة من نقطة المنتصف، أي من المتوسّط (5)، ممَّا يعني أنَّه لا توجد أدلَّة على وجود رابط منهجي ومؤشّر حاسم بين مستوى الدخل ومستوى السعادة في هذه الدول العشر، وقد أطلق على هذا الاستدلال «ظاهرة تناقض إيسترلين»، ويتمثَّل في أنَّ العلاقة بين الدخل والسعادة يمكن أن تختلف بين أهل البلد الواحد أو بين بلاد عدَّة متفرّقة.

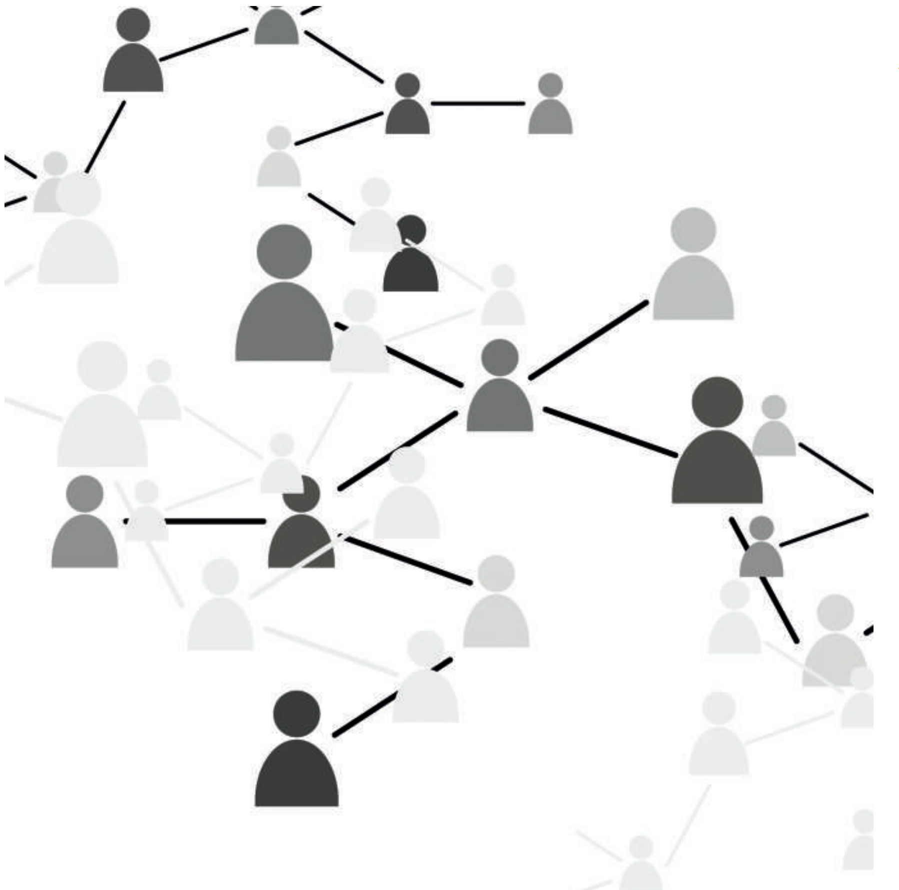
لكن يبقى تساؤل أو اختبار آخر للعلاقة بين المال والسعادة: فماذا يمكن أن يحدث حين يصبح البلد أكثر ثراءً بشكل تدريجي وبمرور الوقت؟ لقد درس «إيسترلين» الاستبانات والمؤشّرات الخاصة بالسعادة على مدى 25 عاماً صارت فيها الولايات المتحدة أكثر ثراءً، وكان ذلك على مدى ربع قرن بعد الحرب العالمية الثانية، فوجد أنَّ نسبة الأمريكيين الأكثر سعادة زادت بشكل ثابت في الفترة ما بين 1946 و1957، ثمَّ انخفضت في الفترة ما بين 1957 و1963، وانخفضت مرة أخرى من 1966 إلى 1970، ما جعله يستنتج أنَّ من الممكن أن نقول إنَّه إذا كان للمال والسعادة طريق واحد ومسار ثابت، وهو ما يجعلنا نفترض أنَّ الثراء المتزايد سيجعلنا سعداء، فإنَّ هذا لا ينطبق على أجزاء أو ولايات البلد الواحد، مثلما لم ينطبق على كل الدول على حدّ السواء، ومن هنا قادت هذه الدراسة إلى الاستنتاج بأنَّ النمو الاقتصادي وحده لا يجعل الناس سعداء.



العلاقة بين سرعة النمو الاقتصادي والسعادة

يعتمد تأثير النمو الاقتصادي على سرعة حدوثه بشكل واضح وجلي، كما توصَّل عدَّة باحثين إلى أنَّ سرعة النمو الاقتصادي والزيادة المتسارعة لمتوسّط دخل الفرد تؤثّر سلباً في مستويات السعادة، بمعنى آخر: إذا تساوت دولتان في الثراء وكانت إحداهما أسرع في النمو الاقتصادي من الأخرى، فإنَّ الدولة التي تشهد نمواً بطيئاً ستكون أكثر سعادة، فقد أجرى الباحثان «ستيفنسون» و«وولفرز» في عام 2008، عدَّة دراسات على الأمم التي كانت تشهد نمواً اقتصادياً، مثل «كوريا الجنوبية» و«أيرلندا»، فوجدا أنَّ سكَّان الدولتين كانوا أقل سعادة في المراحل الأولى للنمو الاقتصادي، وقد أرجعا هذه الظاهرة إلى عدم المساواة في توزيع الثروات بين السكَّان في تلك المرحلة.

ثراء العلاقات الاجتماعية ودوره في صنع السعادة



حسب الاقتصاديون الأوائل مثل (بنتام وميل) السعادة والألم المصادر الأولى للدافعية والبحث عن المنفعة، لكنَّ الاقتصاديين المعاصرين يعدُّون الدخل هو مصدر المنفعة المباشرة، ومن هنا ينزع هؤلاء الاقتصاديون إلى التركيز على مقاييس يمكن تحويلها إلى قيم مالية، معتمدين في ذلك على العلاقة الخطّية القوية بين الثروة المادية ورضى الناس عن حياتهم.

ورغم الصلة القوية بين إجمالي دخل الفرد، وتقارير الاستقصاءات الذاتية عن سعادة الأمم، إلا أنَّ مؤشّرات السعادة لم تأخذ مسارات خطية متسقة على الدوام، كما وجد «إنجلهارت» وفريقه البحثي انحرافات مشابهة في بيانات استبيانات دراسة القيم بين مختلف الأمم، وفسَّروا سعادة الناس في بعض الدول رغم معاناتهم اقتصادياً بالاعتقاد القدري والإيمان ودوره في حياة البشر.

لقد سجَّلت أغلب دول أمريكا اللاتينية درجات أعلى للرضى عن الحياة ممَّا توحي به وتفترضه معدَّلات الدخل وإجمالي الناتج المحلي، كما بدت بعض الدول الاشتراكية في ذلك الوقت أقل رضى ممَّا يعكسه إجمالي الناتج المحلي، وكان الملاحظ أنَّ شعوب دول أمريكا اللاتينية أكثر تديُّناً من شعوب الاتحاد السوفييتي السابق مثلاً، وهكذا رأى «إنجلهارت» أنَّ التفاوت في درجة التديُّن هو التفسير الملائم للانحرافات في المؤشّرات بين دول أمريكا اللاتينية وأقاليم الاتحاد السوفييتي المختلفة.

وفي بحث أكثر أهمية عن السعادة الشخصية، برزت أدلَّة واضحة تشير إلى أنَّ جودة العلاقات الاجتماعية تعدُّ من أهم مؤشّرات السعادة في المجتمعات المعاصرة، وهذا ما أثبتته أبحاث كامبل، وكونفرس، وروجرز، ومن هذا المنطلق تأكَّد الباحثون الاجتماعيون وعلماء النفس من وجود رابط قوي بين جودة العلاقات الأسرية خاصة والاجتماعية عامة، وبين وسعادة الأمم وثراء رأسمالها البشري.

هل تقود سعادة الأفراد إلى سعادة المجتمع؟

في بحث رائع، حثَّ كلٌّ من «هايدت» و«سيدر» و«كيسبر» الباحثين في علوم السعادة على «التفكير في سعادة الجماعات، لا سعادة الأفراد فحسب»، كما أشاروا إلى أنَّه ليس بمقدور الأفراد السعداء أن يخلقوا مجتمعاً سعيداً، داعمين لرؤيتهم ومؤيّدين لحجَّتهم بمثال إنتاج الدجاج والبيض، وقد طرح الباحثون في البداية سؤالاً بسيطاً هو: كيف نستطيع زيادة إنتاج البيض؟ وقد أجاب من ينتهجون منحىً فردياً عن هذا السؤال قائلين: أولاً: اختر الدجاج الأكثر إنتاجاً للبيض، وثانياً: قم بتربية المزيد من عيّنات ذلك الدجاج.



لكنَّ نظرية الانتقاء الطبيعي هذه لم تحقّق الهدف، فبعدما تمَّ انتقاء الدجاج الأفضل كما افترض الباحثون، لم يتحسَّن إنتاج البيض أبداً، ثم لاحظ الباحثون أنَّ الدجاج الأكثر طرحاً للبيض، يعاني من نشاط زائد وسلوك عدواني ويقضي معظم الوقت في الحركة والعراك.

في مرحلة ثانية من الدراسة، قام أحد الباحثين بمراقبة الحظائر الأعلى إنتاجاً من غيرها (وليس الدجاجات الأكثر إنتاجاً فقط)، ثم انتقى الدجاجات المنتجات من الحظائر الأكثر إنتاجاً، ما أدَّى إلى زيادة إنتاجها للبيض عن معدَّلاتها السابقة، وتلخَّص تفسير هذه الظاهرة في أنَّ الحظائر المنتجة كانت تحوي بضع دجاجات تنتج كثيراً من البيض، لكنَّها تتمتَّع بالسلوكيات والديناميكيات المشجّعة للجماعات الأخرى، وعليه فهي لا تعتمد على الإنتاج الفردي فحسب. أي إنَّ زيادة الإنتاج تُعزى إلى التعاون وغياب الصراع بين الجماعة أكثر من المنافسة، علاوة على تدرُّج وتوزيع المهام، ما يؤكّد حقيقتين ضروريتين: البحث عن مؤشّرات النجاح الفردية وتطبيقها على الجماعات أولاً، ثم البحث عن مؤشّرات النجاح الجماعية وترسيخها كسلوك إيجابي بين الجماعات أيضاً.

من هذا نرى أنَّ كل الأبحاث العلمية التي تُجرى على المجتمعات حول السعادة الخاصة قد أخذت المنحى الفردي للتعامل مع السعادة الجماعية، وهناك إمكانية أن تختلف مؤشّرات السعادة لدى الأمم كثيراً عن مؤشّرات السعادة لدى الأفراد: تماماً كما اختلفت مؤشّرات وجود الدجاجات جيدة الإنتاج عن مؤشّرات الحظائر عظيمة الإنتاج، ومن هنا يصبح السؤال الأهم هو: حين نضع أكثر الأفراد سعادة في مجموعة بعينها، هل سيكوّنون أسعد الجماعات، أم أنَّه من الصعب اختزال سعادة المجموع في سعادة الفرد؟ وهل توجد ثقافات أو أعراف وقيم تُروّج للسعادة وتنشرها؟ فإن كان الأمر كذلك، فعلينا تحديد وتنشيط الجماعات الإيجابية المروّجة للسعادة، وعدم الاعتماد على الأفراد فحسب، وهكذا تتحوَّل مسؤولية السعادة من المستوى الفردي، إلى المستويات المؤسَّسية والمجتمعية.

هل تزيد سعادة المجتمع في فاعليته؟

مثلما حاول الباحثون تعريف المجتمع المثالي، حاول آخرون تعريف المجتمع الإيجابي والفعَّال، مركّزين على معدَّلات الفساد في المجتمعات؛ حضورها أو غيابها، حيث تقوم منظَّمة الشفافية الدولية كل عام بنشر مؤشّرات الفساد العالمية اعتماداً على البيانات المتاحة، واستبيانات الخبراء، وقد تبيَّن وجود علاقة قوية بين متوسّط السعادة ومؤشّرات الفساد في استطلاعات مؤسسة «جالوب» العالمية، ولا عجب أن يتمَّ إثبات المعادلة والعلاقة إحصائياً والتأكُّد من أنَّ الأمم الأكثر فساداً هي الأمم الأقل سعادة.

ويضاف إلى الفساد كمقياس لعدم كفاءة المجتمعات وعدم سعادتها، مؤشّرات الرعاية الصحية بما يندرج تحتها من انخفاض في معدَّل وفيات

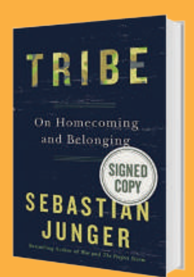
المواليد وارتفاع متوسّط أعمارهم عند الولادة. لقد ثبت أنَّ الأمم ذات متوسّط العمر المرتفع تتمتَّع بقدر أوفر من السعادة؛ إلا أنَّ هناك أمماً غير سعيدة رغم ارتفاع متوسّط أعمار شعوبها مثل «هونج كونج»، و«سلوفاكيا»، و«جورجيا»، حيث تبدو منظومة الرعاية الصحية في هذه الأمم فعالة، لكن الناس، على عكس ما نفترض ونتوقَّع، غير سعداء. من ناحية أخرى هناك أمم سعيدة رغم انخفاض متوسّط أعمار أهلها، كما نجد في «المكسيك» و«جنوب أفريقيا» مثلاً.

وعلى الرغم من أنَّ العلاقة بين متوسّط سعادة الأمم وفاعليتها لا غبار عليها، إلا أنَّ هناك أمماً تخيّب توقُّعاتنا من حيث كفاءتها، ويمكننا تفسير مثل هذه النتائج على ضوء خصائصها الناشئة، إذ يعدُّ أغلب سكان دول مثل «هونج كونج»، و«اليابان»، و«ألمانيا»، و«البرتغال» متوسّطي السعادة، مع أنَّ هذه المجتمعات تعمل بكفاءة وتحقّق إنتاجية اقتصادية مرتفعة، والعكس أيضاً صحيح، فهناك أمم يعيش سكانها بسعادة رغم افتقارها إلى الكفاءة، فلماذا يحدث هذا؟

قد تكون القيم الثقافية أحد الأسباب، فمن الممكن أن تكون «هونج كونج»، واليابان»، و«ألمانيا»، و«البرتغال» من الدول التي تُعلي شأن الإنجازات المادية أكثر من السعادة، ومن هنا فإنَّ زيادة إنتاجية المجتمع تحسّن أحواله العامة أكثر من سعادة أفراده كلٌّ على حدة، والعكس صحيح؛ إذ يعمل ويميل مواطنو بعض الأمم إلى الاستمتاع بحياتهم رغم سوء أوضاعهم الاقتصادية.

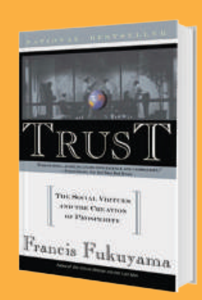
من المهم أن نشير في الختام إلى أهمية إجراء المزيد من الدراسات عن الثروة المعنوية للمجتمعات، فرغم توافر معايير مقبولة لقياس هذه الثروة، يبقى من المهم أن نطوّرها، وأن نبتكر المزيد من المعايير، ومن المهم أيضاً دراسة تأثير الجينات والبيئة في الثروة المعنوية ومؤشّراتها ومخرجاتها، ومن المهم أيضاً أن ندرك ونستوعب الآثار بعيدة المدى للمشاركات الفردية والمجتمعية، علاوة على تدريب الباحثين على اتخاذ المنحى الجماعي في دراسة السعادة، بدلاً من الاقتصار على المعرفة الفردية التي يتبنَّاها علم الاقتصاد وعلم النفس كلٌّ على حدة، وهذا يعني أنَّ الاقتصاد السلوكي الذي يجمع بين العلمين، يمكن أن يوظّف أدوات حديثة تمكّننا من استيعاب المحرّكات الجماعية لسعادة المجتمعات، وهذا ما عنيناه بالتأكيد في دراسة الجماعات السعيدة، لا الأفراد السعداء فقط، هذا ورغم ما يتبقّى من تحدّيات، علينا أن نمعن التفكير ونتأمَّل ما حقَّقناه حتى الآن، وما يجب أن يُشعِرَنا بالتفاؤل في هذا الاتجاه، هو اهتمام المزيد من علماء الاقتصاد الشباب ومن علماء النفس الإيجابي الموهوبين وعلماء الاجتماع الجادين بهذا المجال، الذي سيمدُّنا بمخرجات إيجابية في السنوات القريبة القادمة، مع تأكيد أنَّ السعادة المجتمعية والثروة المعنوية للدول هي مسؤولية جماعية ومشتركة، ولم ولن تكون مجرد مؤشّرات لحالات ومحاولات فردية.

كتب مشابهة:



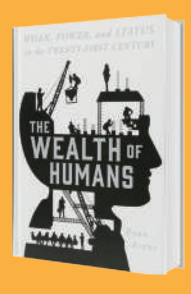
Tribe
On Homecoming and Belonging.

By Sebastian Junger. 2016.



Trust
The Social Virtues and the Creation of Prosperity.

By Francis Fukuyama. 1996.



The Wealth of Humans
Work, Power, and Status in the Twenty-first Century.

By Ryan Avent. 2016.

قراءة ممتعة

ص.ب: 214444
دبي، الإمارات العربية المتحدة
هاتف: 3444 423 04
نستقبل آراءكم على pr@mbrf.ae

تواصلوا معنا على
MBRF_News
MBRF_News
mbrf.ae
www.mbrf.ae

qindeel_uae
qindeel_uae
qindeel.uae
qindeel.ae




SAMSUNG
محمد خطاب